المحاضرة الثانية: تكون وتطور المؤسسة الاقتصادية

لقد مرت المؤسسات الاقتصادية على اختلاف أنواعها وأنشطتها بعدة مراحل وتطورات متواصلة حتى وصلت للشكل الذي نراها عليه اليوم، فهي نتيجة لتطور منظومة مكونة من الفرد والفكر والزمان والمكان، حيث انتقل فيها الفرد نتيجة تطور فكره وتغير معالم مكانه وزمانه من ممارسة نشاط زراعي يحقق به اكتفاءه الذاتي، إلى ممارسة نشاط حرفي يغطي به احتياجاته المتزايدة، لينتقل إلى مرحلة النشاط الصناعي اليدوي في قفزة كبيرة مهد ت لمرحلة الثورة الصناعية والنشاط الصناعي الألي، ليرسم بذلك وفي كل مرحلة من المراحل السابقة شكلا جديدا من أشكال المؤسسة الاقتصادية بصبغة الفكر والنظم السائدة فيها من نظم اجتماعية واقتصادية...إلخ، لتصل المؤسسة الاقتصادية في النهاية لما هي عليه الآن ن تطور كبير خاصة في ظل العولمة والثورة التكنولوجية والمعلوماتية الحالية.

وسنتطرق فيما يلي لأهم المراحل التي مرت بها المؤسسة الاقتصادية في تطورها:

1. مرحلة الإنتاج الأسري البسيط:

لقد اعتمد الانسان لفترة طويلة من وجوده على النشاط الفلاحي المتمثل في زراعة الارض وتربية المواشي لتلبية حاجاته الأساسية المختلفة من مأكل، ومشرب، وملبس ومأوى، إضافة إلى مزاولته لبعض الحرف اليدوية البسيطة، ولم تعرف التجارة آنذاك، حيث كانت المبادلة تتم بالمقايضة بين الأسر التي تصنع الأدوات البسيطة والأسر المستعملة لهذه الأدوات كمقايضة كمية من المنتوجات الزراعية أو عدد من الماشية مقابل بعض الأدوات البسيطة التي تستعمل في زراعة الأرض، كما تميزت هذه المرحلة أيضا بالسيطرة الإقطاعية في الريف واستغلال الأسر في الفلاحة، وأهم الحرف اليدوية التي كانت سائدة آنذاك النجارة، الحدادة، الدباغة، صناعة المنتجات الجلدية والغزل والنسيج وصناعة السلال.

وكلما زاد عدد السكان في قرية وتوفرت عوامل التحضر، انتقلت بالتدريج من الطابع القروي إلى الطابع الحضري، وكثيرا ما أدت نشأة المدن أو التجمعات الحضرية، إلى تغيرات مهمة مثل تحرر العمال من الحقول الريفية واستقلالهم في ممارسة بعض الحرف، مما حقق امكانية تجمعهم في أماكن أو محلات لتكوين وحدات حرفية.

2. مرحلة الوحدات الحرفية :

بتحرر العمال أو الفلاحين وتكوينهم لتجمعات سكانية حضرية ومع ارتفاع الطلب على المنتجات الحرفية (ملابس، أدوات انتاج...إلخ)، بالإضافة إلى ظهور عمال بدون عمل أو بأعمال مستقلة في منازلهم أو في أماكن مخصصة لذلك، كل هذا أدى إلى ظهور محلات وورشات تجمع أصحاب الحرف المتشابهة تحت إشراف كبيرهم، أو أقدمهم في الحرفة، على شكل أسري يغيب فيه الاستغلال، أو القسوة مثل ورشات الحدادة والنجارة والنسيج... إلخ، وتميزت عملية الانتاج في الورشة الحرفية بعلاقات اجتماعية خاصة وعائلية بين أفرادها (ثقة، احترام...) مما خلق جو من الانضباط الاجتماعي والتنظيم الداخلي الذي ساعد على استقرارها، خاصة قوة العلاقات الخاصة في العمل، بحكم أن صاحب الورشة يعمل بشكل عادي مع الصناع والمتتلمذين في شكل تنظيمي افقي؛

وقد أوجد أصحاب الحرف بمختلف مستوياتهم نظاما يسمى بنظام المجموعات الحرفية أو الطوائف هدفه:

- المحافظة على المساواة بين المعلمين أصحاب الورشات لكي لا تنشا فئة غنية منهم تتميز عن الآخرين، وذلك من خلال مراقبة وسائل الانتاج (عدم السماح بتطويرها)، والاستمرار في نفس وتيرة الانتاج وبنفس النوعية، ولم تقف رقابة الطوائف عند حد الانتاج وطرقه ووسائله، بل تعدته لطريقة الحصول على الموارد الاولية الخام، بالقيام بشرائها وبيعها للمعلمين لمنع احتكارها؛
- كما تسعى هذه الطوائف كهدف ثان إلى الحفاظ على مكانتها في المجتمع من خلال توفير الشغل لأكبر عدد ممكن من الأفراد من خلال منع تقسيم العمل وتطوير وسائل الانتاج خاصة وأنّ هذا الأخير كان حسب الطلب.

كما تميزت هذه الورشات بالتنظيم الدقيق في عدد المعلمين، عدد الصناع والمرافقين والمتتلمذين، بالإضافة للأجور، ساعات العمل، والترقية حيث ينتقل العامل من متتلمذ إلى صانع ثم إلى معلم في الأخير في وقت وجيز، ووفق معايير عادلة، كما تحرم الطائفة المعلمين من العمل الحر لدى الغير كصناع للاحتفاظ بوحدة المعلمين. كما حددت أيضا الأسعار وطريقة التعامل مع المستهلك فلم يكن هناك تجار ولا وسطاء بين المنتجين والمستهلكين.

إلاّ أنه مع مرور الوقت أصبحت عملية ترقية العامل في الورشة تستغرق وقتا طويلا جدا، أو لا تتم نهائيا، وهذا بسبب الصرامة الكبيرة في العمل وكذلك الطابع الوراثي في هذه الورشات، وبالتالي أصبح الصناع عمال أجراء في اوروبا في القرن السابع عشر، وهنا نشأت جمعيات العمال لحماية حقوقهم (نشأت في القرن 17 وهي أصل النقابات الحالية)، ومع التغيرات التي سبقت الثورة الثقافية والصناعية في أوربا بدأت هذه الوحدات الحرفية بالتلاشي، واختفت نهائيا بعد نجاح الثورة الصناعية.

ومن أسباب تدهور هذا النظام ظهور حرفيين مستقلين ينافسون هذه الوحدات الحرفية، وخروج الصناع عن الانضباط الجماعي للمعلمين وتكوينهم ورشات منافسة للطوائف، كما أن رؤساء هذه الوحدات الحرفية حولوا التجمعات الحرفية إلى تجمعات تجارية بعد ثرائهم، إضافة إلى الدور الذي لعبه ظهور طبقة من الوسطاء التجار وثرائها لتساهم فيما بعد في الانقلاب الصناعي الذي بدأت بوادره تظهر مع تدهور نظام الوحدات الحرفية وظهور التطور العلمي الذي شهدته أوروبا.

3. مرحلة النظام المنزلي للحرف :

قبل ظهور النظام الرأسمالي الصناعي، ظهر النظام الحرفي المنزلي الذي كان يمول من طرف الرأسماليين التجاريين، حيث اعتبر همزة وصل بين النظام الحرفي الجماعي ونظام الانتاج الرأسمالي، مع أنه عاصرهما اثناء انتشارهما في اروبا خاصة، فشهد نهاية الاول وبداية الثاني.

ولقد أدى ظهور التجار الرأسماليين إلى استعمالهم لعدة طرق من أجل حصولهم على المنتوجات وبيعها في ظروف مرضية فبالإضافة إلى تعاملهم المباشر مع الحرفيين، قاموا بتموين الأسر في المنازل بالمواد اللازمة لإنتاج السلع بالمواصفات والكمية التي يطلبونها منهم وفي الآجال التي يحددونها لهم وقد شاع هذا الأسلوب بشكل خاص لدى الأسر الريفية التي كانت على استعداد لمزاولة أنشطة أخرى إلى جانب نشاطها الفلاحي للحصول على مداخيل اضافية تمكنها من تغطية حاجتها المتزايدة.

وتميزت هذه المرحلة بزيادة نفوذ التجار على الحرفيين في المنزل على اعتبار أنهم أصحاب وسائل ومواد العمل، كما استعملوا اسلوب الاغراء بالدفع النقدي الفوري أو التسبيق لربط الحرفيين بهم، الذين لا يملكون سوى عملهم، فقد أصبحوا مجرد عمال وأجراء في منازلهم تربطهم علاقة منفعة متبادلة بالتجار الرأسماليين.

4. مرحلة المانيفاكتورة أو المصنع اليدوي(la Manufacture): في هذه المرحلة استطاع التجار الرأسماليون جمع عدد من الحرفيين تحت سقف واحد من أجل أن يتمكنوا من مراقبتهم بشكل أفضل، وأن يستعملوا الأدوات والوسائل التي يوفرونها لهم للإنتاج بشكل أنجع، وهكذا ظهرت المصانع في شكلها الأولي وكانت تدعى "المانيفاكتورة La manufacture " والتي تعني باللّغة اللاتينية العمل باليد، و تتكون في الأساس من أدوات بدائية يدوية وتخضع لنوع من التنظيم يختلف عن تنظيم الوحدات الحرفية السابقة، حيث تخضع مختلف العمليات الإنتاجية فيها إلى إشراف صاحبها وليس للحرفيين، كما كان في المراحل السابقة، حيث أصبح يقتصر دورهم على تنفيذ أوامر التاجر، وقد أخذت المانيفاكتورة شكلين رئيسين هما:

- الشكل الأول: منشآت تجمع عددا من الحرفيين الذين كانوا يشتغلون بنفس الحرفة سابقا، وفي هذه المنشآت، يقومون بجزء معين من مجموع مراحل عملية إنتاج سلعة معينة.
- الشكل الثاني: منشآت تضم مجموعة من الحرفيين ذوي حرف مختلفة يساهم كل منهم بجزء معين في عملية الانتاجية مثل صناعة عربة خيل فهي تتطلب عمل نجار وحداد وميكانيكي ودهان...إلخ.

وتعتبر "المانيفاكتورة La manufacture " شكل الانتاج الذي تولدت عنه المؤسسة الرأسمالية فيما بعد وربما أكثر ما عجل في زوالها هو عدم انضباط والتزام العمال فيها، بالإضافة للتطورات السريعة التي شهدتها فترة وجودها من بداية ادخال بعض الآلات والوسائل الانتاجية في المصانع، حيث وجدت بعد ذلك مؤسسات صناعية آلية.

5. مرحلة المؤسسة الصناعية الآلية : لقد ظهر العمل الصناعي بمعناه الحقيقي منذ اختراع الآلة البخارية واستعمالها في عملية الإنتاج، حيث كان أول إختراع في ميدان النسيج، باختراع آلة الغزل على يد (Jean Watt) سنة 1735م حيث سمحت هذه الأخيرة للعمل من أن ينتقل من الشكل المانيفاكتوري إلى شكل أكثر حداثة تتمثل في مؤسسات رأسمالية آلية، يطلق عليها اسم (La Fabrique) المعمل أو المشغل، لأن المصنع يعد مرحلة أكثر تقدما من المشغل.

هذا الأخير الذي يعني تجميع عدد كبير من اليد العاملة لممارسة مهن وأنشطة مختلفة باستعمال آلة بخارية عوض استعمال الطاقة الجسدية بصفة خالصة.إن المشغل الأكثر تطورا قد ظهر في إنجلترا على يد (Avkwright)، في ميدان النسيج دائما حيث عوضت فيها أنوال الخيط صناعة الخيط في المنازل.

و من أهم ما يميز هذه المرحلة من مراحل تطور المؤسسات الاقتصادية ما يلي:

- تقسيم العمل والتخصص في إنجاز المهام والأعمال أصبح أكثر وضوحا ودقة من النمط المانيفاكتوري حيث يقوم أساسا على الخصائص التقنية للآلة، بالإضافة إلى التجزئة الكبيرة لمراحل العمل من أجل الحصول على المنتوج النهائي؛
- وجود جهة مختصة داخل المعمل لتنظيم وتوجيه العمال للقيام بالمهام الموكلة اليهم؛
- أصبح العامل يتميز بانضباط والتزام عاليين داخل المعمل للقيام بالعملية الانتاجية بشكل كفؤ وفعال. فلم يعد العامل يتمتع بنفس الحرية التي يتمتع بها العامل الحرفي أو اليدوي؛
- زيادة وتيرة الانتاج وتوسع حجمه لتلبية حاجات المستهلكين المتزايدة.

ويرجع الاقتصاديون نشوء وتطور هذه المؤسسات إلى عدة أسباب أهمها:

- الأسباب التقنية فالتفوق الميكانيكي لهذه المؤسسات التي تستعمل المياه والطاقة بشكل كبير جدا جعلها تعوض العمل اليدوي وتقضي على مقاومة الاشكال القديمة من الانتاج اليدوي،
- سبب التكاليف والاسعار فانخفاض التكاليف في هذه المؤسسات وأسعارها التنافسية وارتفاع مردوديتها ادى الى تطورها وسيطرتها على اشكال الانتاج الاخرى.
- سبب المراقبة حيث يعود سبب نجاح وتوسع هذه المؤسسات في بدايتها للإدارة المحكمة والتنظيم الجيد حيث تمكن صاحب المال أو المنظم من التحكم في العمال وضبطهم والتحكم في العملية الانتاجية التي أصبحت تتميز بالتخصص وتقسيم العمل.

لقد ظهرت المؤسسات الاقتصادية وتطورت ضمن الحركة التاريخية للنظام الرأسمالي الذي كانت بدايته منذ القرن السادس عشر وهناك عدد من العوامل الاخرى التي تعتبر من الشروط التي ساهمت في ظهور وتطور المؤسسات الاقتصادية منذ تلك الفترة منها:

- نشوء المؤسسات المالية الحديثة (بنك امستردام1608، بنك انجلترا1694...إلخ) ودورها الكبير في النشاط الاقتصادي؛
- ظهور وانتشار الاختراعات التقنية بشكل واسع في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع التي استعملت في مجال الصناعة؛
- الثورة الفكرية: ومن أهم مخرجاتها الافكار التي نادت في القرن الثامن عشر بالحرية الاقتصادية وحرية الفرد وحرية ملكية وسائل الانتاج؛
- الاصلاحات الزراعية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وما تنج عنها من استعمال لثروت الفلاحين فيما بعد في استثمارات صناعية؛
- النمو الديمغرافي الذي سمح بتدعيم الانشطة الصناعية بتوفير اليد العاملة من جهة والمستهلكين للمنتجات من جهة اخرى.

بالإضافة الى استفادت الصناعة المدنية من الصناعات الحربية في الحرب العالمية الاولى و الثانية ومخطط مارشال في اعادة بناء الصناعة الاوروبية وأزمة 1929 وما نجم عنها من اعادة النظر في تسيير المؤسسات، بالإضافة للاحتكارات التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر والحركات الاستعمارية وما نتج عنها من نهب لموارد الدول المستعمرة واستعمالها في مؤسساتها وكذلك ظهور المؤسسات الكبيرة المتعددة الجنسيات.

6. مرحلة المؤسسة الحديثة :مع التطور الذي شهده الاقتصاد الرأسمالي، نظرا لتوفر الظروف الملائمة المذكورة سابقا وزيادة الانتاج الصناعي والزراعي الكبير في مؤسسات البلدان الغربية أوروبا والولايات المتحدة الامريكية في بداية الامر، كانت هناك ضرورة لهذه المؤسسات لاتباع عدة استراتيجيات تكتل فيما بينها (ومن أهم هذه التكتلات الكارتل و الترست والهولدينغ)، للتغلب على المنافسة، وكذلك للدخول إلى الاسواق الخارجية ليس فقط في صورة موزع للسلع والخدمات، بل أيضا كمنتج في أكثر من بلد خارجي وهذا ما يدعى بالشركات المتعددة الجنسيات.